

استهلال

اعرف القواعد والعب

قال الثعلب: «كان من الأفضل، لو أنك عدت في الساعة نفسها، لو أنك تأتي في الساعة الرابعة بعد الظهر مثلاً، فعند ذلك أستطيع أن أبدأ بالشعور بالسعادة في الساعة الثالثة. ولكن إذا كنت ستأتي في وقت غير محدد، فلن أستطيع أن أعرف قط متى سيكون قلبي حاضراً. يجب أن توجد عادات ثابتة».

معرفة متى
سيكون القلب
حاضراً

فأجاب الأمير الصغير: «ما معنى عادة ثابتة؟».

قال الثعلب: «شيء طواه النسيان أيضاً. إنه شيء يميّز يوماً عن آخر، وساعة عن أخرى. فمثلاً توجد عادة لدى صياديّ. إنهم يرقصون يوم الخميس مع فتيات القرية. ولذا فإن يوم الخميس هو أكثر الأيام سحراً بالنسبة لي. إنني أذهب إلى فاينبيرغ للتنزه. أما عندما يذهب الصيادون في وقت غير محدد من الأوقات للرقص، فسوف تكون جميع الأيام متماثلة ولن أحصل على إجازة قط».

إن الثعلب في قصة «الأمير الصغير» للكاتب أنطوان دي سان إكسبري، يبحث في الميدان عن قواعد بين التوتر والانفراج، بين أن يصبح فريسة تصطاد وبين الهدوء، بين الخوف والتحرر من القلق، وبين الحزن والسرور، وبين البعد والقرب، إنه لا يبحث عن إزالة التوتر. فمن خلال العادات الثابتة، التي تواجه الفوضى وما لا يمكن رؤيته مسبقاً، ينبغي أن تمنح الحياة منعطفاً يجنبها التوتر.

التوتر بين
الفوضى
والعادات الثابتة

ثقافة التعامل مع بعضنا البعض

والناس أيضاً يبحثون عن قواعد تمنحهم السند والأمن، وفق شعائر وعادات يمكن اتباعها، ووفق طرق للتصرف وللسلوك،

وعندما نستدعي في الشركات للمشاروات الثقافية، فإننا نقدم تعريفنا للثقافة كما يلي:

الثقافة هي ما تتم رعايته خارج إطار القيم الاقتصادية

هي أساليب سلوكنا وعاداتنا وشعائرننا

وينبغي لها أن تقدم للإنسان الأمن والسكينة والوطن في جو من الثقة والتحرر من الخوف.

الثقة والتحرر
من الخوف

ينبغي أن يتمكن البشر من التحدث بلا خوف عن مخاوفهم.

والمشكلة التي يحدثها البشر لأنفسهم تكمن في أنهم يريدون أن يزيلوا التوتر أثناء سعيهم لإزالة خوفهم من الخسارة والفشل والانفصال. إنهم لا يريدون أن يتجول الرقاص من الزائد إلى الناقص ثم يعود مرة أخرى إلى الزائد وهكذا دواليك. إنهم يريدون أن يستقر الرقاص عند الزائد، لأنهم يرغبون في الهوية والأمن والنظام. إنهم يريدون (الإيزو) ISO وهي كلمة يونانية تعني متساوٍ، موازين متساوية، ومعايير متساوية وبشر متساوين، إنهم يتمنون التحرر من التوتر، كما هو شأن الطقس الجميل في مناطق الضغط الجوي المرتفع، ولكن بالسوء الطالع!

في ميدان التوتر

الحياة هي التوتر

الحياة نوسان أو حركة دائبة لا تنتهي إلى أن تتوقف، ويتدلى النواس بين الزائد والناقص -لملايين السنين- التي هي تحت تصرفنا للانفراج ونزع التوتر.

ولكن صدقوني توجد حياة قبل الموت.

تقدم الحياة تعريفاً لها في حقول التوتر من الهجوم والتراجع والتملك والتخلي، والتشنج والاسترخاء والقتال واللعب والقلق المحموم والهدوء الرواقي والبعد والقرب والمجابهة والطمأنينة.

إن الفيزيائي النمساوي وحامل جائزة نوبل إيرفن شرودنغر، قدم تعريفاً للحياة في كتيب له تحت عنوان «ما هي الحياة؟» كتبه في المنفى الإنكليزي عام ١٩٤٣:

الحياة هي هذا الذي يعمل ضد نزعة الجنس البشري - من النظام إلى الاضطراب بلوغاً إلى الفوضى - الحياة تعني إذن السباحة إلى الأمام عكس التيار، أي خلق النظام من حالة الفوضى. لقد صور «فريد ريش نيتشه» قوة التوتر القادرة على التشكيل بين النظام والفوضى وبين الثابت والمتغير وبين الآمن وغير الآمن، في الجملة التالية:

لا بد أن يكون المرء يمتلك فوضى داخله حتى يتولد منه نجمة راقصة.

وكتب باول فاتيسلافك: «إن النظام المتشدد الذي لا يوجد فيه أدنى مقدار من اضطراب في النظام يصبح معادياً للحياة، لأنه يخنق كل إمكانية لمزيد من التطور».

ولنسلّم بأن هذا الكلام ليس له وقع مذهب المتعة - أي ملاحقة مذهب المتعة من جانب واحد - الذي يرى أن معنى الحياة يكمن في إشباع الحاجات، جميع الحاجات. (ويرى أصحاب مبدأ المتعة أن شرعية مبادئهم وطريقة حياتهم مبررة في أن وجود الحاجات الخالصة يتطلب تلبيتها وإشباعها). وغالباً ما ينسب إليهم خطأ الفيلسوف إبيقور. إن هذا الفيلسوف لم يرغب في العيش في إدمان المتعة بلا حدود، كما يدعي البعض خطأ. بل على العكس، إن إبيقور الذي عاش قبل سيجموند فرويد بحوالي ٢٣٠٠ سنة كان مدركاً أن إشباع الشهوة يعقبه انعدام الشهوة، ومن ثم التعقل والصحو. كانت أهدافه وأهداف الإبيقوريين التحرر من الألم، وهدوء النفس.

العدوان المحطم للحياة والعدوان المحافظ عليها

عندما يحمل هذا الكتاب العنوان التالي: «فن العدوان» فإن من المفيد، وبغية الفهم المشترك، أن نقوم بتعريف مفهوم العدوان. ماذا يفهم عموماً من العدوان؟

تعريفات وتوضيح
للمفاهيم

في اللاتينية تعني كلمة aggressio الاعتداء. والتصنيف الممكن بين أشكال الاعتداء أو الهجوم هو تقسيمها إلى عدوان موجه نحو الخارج، وعدوان موجه نحو أنفسنا. وبالنسبة إلى العدوان نحو الخارج، نريد أن نميز بين عدوان بين الأشخاص، ومثال ذلك بين الأفراد والأنظمة الاجتماعية، أو بين الأنظمة الاجتماعية فيما بينها.

يوجه البشر طاقاتهم الهدامة المخربة ضد ذاتهم أيضاً، كعدوان على الذات، على شكل احتقار للذات، وكراهية الذات، والانتحار، والمازوشية. والأشكال الأخرى من العدوان على الذات هي الانسحاب العاطفي الداخلي، والاستسلام والاكتماب. ويتوضح العدوان في فرضية -العدوان- الإحباط، كرد فعل على تجربة العبثية.

العدوان الذاتي

في علم النفس يوصف بالعدوان كل سلوك هجومي للإنسان مرتبط بالشعور بخاصة، ويستهدف تصاعد قوة المهاجم وتقليل قوة من وقع عليه الهجوم. (قارن زيمباردو-علم النفس). وإلى جانب العدوان الموجه نحو الخارج، يوجه البشر طاقاتهم الهدامة ضد شخص الإنسان نفسه، كعدوان على الذات، على شكل احتقار الذات، كراهية الذات، الانتحار، المازوشية. ويوضح العدوان في فرضية -العدوان- الإحباط كرد فعل على تجربة العبثية.

العدوان في علم
النفس

العدوان في
التربية

في علم التربية، فإن مشكلة المربي هي قبول العدوان جزئياً
كقدرة أساسية حيوية لدى الفرد الذي يشرف على تربيته. وفي
أبحاث دراسة السلوك، يشمل العدوان جميع أفعال الاعتداء التي
تستهدف الإضرار بالمنافس أو ضربه ليلوذ بالفرار. هذا من ناحية.
ومن ناحية أخرى إنه حالة نفسية مزاجية واستعداد داخلي للهجوم،
يلجأ إلى باعث داخلي يدفع حتى للبحث عن المنافس.. وأود أن
أقدم تعريفاً للعدوانية: هي موقف هجومي متحد، مدمن على
النزاعات بوعي أو بغير وعي، يصدر عن الإنسان.

العدوان في بحث
السلوك

العدوانية

ويعرف إيرش فروم Erich Fromm العدوانية في كتابه: علم
تشريح التخريب البشري. قائلاً: الانطلاق إلى هدف دون إبداء
أدنى تردد أو شك أو خوف. لكننا لا ننضم إلى شروطه التي وضعها
«دون تردد أو شك أو خوف» لأن هذه القيود غير كافية لفهم
العدوانية، وللمقارنة الأساسية بين «عدوانية الخصم» إزاء «عدوانية
العدو». هل يمكن للمرء أن يشذب العدوان، عندما ينطلق من صورة
إنسانية يمكن أن تكون متحررة من العنف؟ وكما أن لمعظم الأشياء
الهامة جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً، فكذلك شأن العدوان أيضاً.

ازدواجية العدوان

في التعريف التربوي، جرى الحديث عن «قدرة أساسية
حيوية»، وقدمت ترجمة بناءة لكلمة «عدواني» بكل تحدٍ وكتب
إيرش فروم حول ذلك قائلاً: «إن تاريخ البشرية عبارة عن تقرير
حول تخريب ووحشية استثنائية. إن عدوانية الإنسان هي بوضوح
أعظم من أسلافه الحيوانات. فالإنسان على النقيض من معظم
الحيوانات، هو قاتل حقيقي. كيف يمكن تفسير هذا العدوان
المفرط في الإنسان؟ ليس لدى الحيوانات أية رغبة في إلحاق الألم
والعذاب بالحيوانات الأخرى. ولا يقتلون أيضاً من أجل لا شيء،
ومرة أخرى من أجل لا شيء. إن الرغبة في التدمير من أجل

التدمير نفسه، شيء مختلف، ويبدو أن الإنسان بمفرده يشعر بأحاسيس اللذة، عندما يدمر بلا مبرر، ولأجل التدمير نفسه.»

وميّز فروم بين العدوان المتكيف بيولوجياً الذي يخدم الحياة وهو من النوع الجيّد وبين العدوان غير المتكيف بيولوجياً، وهو من النوع الشرير، إن النوع الأول رد فعل على تهديد المصالح الحيوية. وهو مشترك بين الإنسان والحيوان. إنه لا يتصاعد من نفسه، بل هو عبارة عن رد فعل، وهو دفاعي، ويهدف إلى إزالة العدوان من خلال إما القضاء عليه أو إزالة أسبابه.

العدوان من نوع
جيد

أما العدوان غير المتكيف بيولوجياً ومن نوع شرير، وهذا يعني التخريب والوحشية، فهو لا يمثل الدفاع في مواجهة التهديد، ويتميز الإنسان بمفرده بهذا النوع من العدوان. إنه ضار بيولوجياً لأنه يؤثر تأثيراً هداماً في المجتمع. والتعبير الظاهر له -القتل والوحشية- مفعم باللذة دون ما حاجة لأن يخدم غرضاً آخر. إنه ليس ضاراً ومؤذياً للضحية فقط، بل للمهاجم أيضاً.

العدوان الشرير

هذا التقسيم إلى عدوان تكيفي في مواجهة عدوان غير تكيفي يحتاج - من أجل معيار «التكيف» الذي وصفه فروم بأنه رد فعل وبأنه دفاعي - إلى استكمال يدور حول فاعل وهجومي. وعندما يرى فروم العدوان التكيفي كرد فعل على تهديد المصالح الحيوية فليس من الصعب تصور أنه ينبغي علينا حماية حياتنا بطريقة جيدة أيضاً، من خلال أن نهاجم بشكل فاعل وهجومي ووقائي أيضاً.

التكيف الفاعل
والعدوان
الهجومي

ورتب روبرت ليه Rupert Lay في كتابه «ديالكتيك من أجل المدراء» العدوان بين ١٣ كفاءة ديالكتيكية ينبغي أن يراها المرء بغية الإقناع. وقدم تفاصيل هذه الكفاءة على العدوان، بالتحكم بالطرق غير العادلة في الهجوم والدفاع، ولكن أيضاً بالقدرة على الالتزام واستخدام انفعالات بناءة، بالإضافة إلى القدرة على تجنب

العدوانية البناءة
هي كفاءة

خلق الإعداء، وأيضاً القدرة على المحافظة على اتخاذ موقف اللعب،
ومعايشة التسامح الفعّال (فالتسامح السلبي يطابق اللامبالاة)
والمحافظة على الصبر.

وحول المعيار الديالكتيكي لموقف اللعب، قصّ عليّ أحد
المشاركين في دوراتي الحكاية التالية:

عندما تحدثت عن كفاءة الإبقاء على اللعب وعدم التشنج،
طرح عليّ السؤال عما إذا كنت أعرف الفارق بين الألماني
والنمساوي. وعندما أجبت بالنفي، قدمت لي التوضيحات التالية:
«الألماني يقول: الوضع خطير، ولكنه ليس يائساً. وفي المقابل يقول
النمساوي: الوضع يائس ولكنه ليس خطيراً، وهذه أكثر النكات
النمساوية التي عرفتها طرافة. وهي من النكات التي ما فتئت
أذكرها.

وبالمقدار الذي تستخدم فيه الطاقات العدوانية لتطوير وتفتح
الكفاءات والقدرات البشرية، على صعيد الحياة البشرية، وعلى
صعيد المنظمات، تستطيع أن ترى العدوان البناء كمساهمة في
إرساء ثقافة التعامل مع بعضنا البعض.

عدوانية العدو
ضد عدوانية
الخصم

ونود مع روبرت ليه أن نميّز أكثر بين عدوانية العدو وعدوانية
الخصم. يجب تمييز العداء بكل حذر عن الخصومة. فعدوانية
الخصم تتم ضمن قبول متبادل. وبدون عدوانية الخصم، لن تكون
هناك ألعاب قتالية ومسابقات ونزاعات جدلية ممكنة». (من
كتاب كيف يخلق المرء الأعداء لروبرت ليه).

إن المنافسة التي تجعل حياتنا حيوية، تزدهر في جوٍّ من
الخصومة. وإن عدوانية الخصوم تنعش كل علاقة بين البشر، بل
حتى أنها شرط مسبق ضروري لها. والعلاقة الحيوية بين البشر

تتأرجح بسرعة بين القرب والبعد. والعامل الذي يخلق التباعد هو عدوانية الخصم. أما عدوانية العدو فمختلفة تماماً. إنها لا تريد إيجاد مسافة تباعد، بل تريد أن تلحق بالعدو الصغار والأذى والضالة. عدوانية العدو هي في العادة معادية لكل ما هو منتج، إلا إذا كنا نستخدمها لحماية أراضينا أو للتصدي لأعداء يمارسون اللاتسامح بفعالية.

القرب والبعد

وقد تكون عدوانية الخصم منتجة إجمالاً. فمن خلالها تتحدد علاقة -القرب- البعد في العلاقات العاطفية والجنسية (الزمانة، الصداقة، الحب).

ماذا تحدث علاقة العداء من مزيد من التأثيرات؟ إن العداوة مليئة بالشكوك- غالباً بسبب سوء استخدام الثقة. والخوف هو النتيجة. ونريد أن نقارن العداوة والصداقة (بوصفها النقيض المضاد لها). الصديق هو إنسان يستطيع المرء أن يثق به تماماً وبلا خوف، وستكون النتيجة شعور بالطمأنينة، أما إذا ساد الشك بدلاً من الثقة، دون أن يبلغ مرحلة انعدام الثقة، فإننا نريد أن نطلق على هذه العلاقة تعبير الخصومة. إنها لن تسيّر نحو الخوف ولكنها أيضاً لن تسمح بحلول الطمأنينة. وبغية تقليل مسافة التباعد في علاقة الخصومة والسماح بالتقارب، ينبغي تقليص ميادين الشك. وخلافات الرأي وتحويلها إلى قبول متبادل أو حتى استبعادها.

الانتصار - الهزيمة، البقاء - الفناء - الخسارة - الريح

يستخدم تعبير الريح وتعبير الانتصار في الحياة اليومية كمترادفين أو كمتماثلين في المعنى غالباً. إننا نود أن نشيد البناء الفكري التالي: إنه في حالة الانتصار، يوجد منتصر ومهزوم، وفي المقابل يمكن في حالة الريح أن يقف في مواجهة الريح، الخاسر الأول أو الخاسر الثاني. إذن لم تعد كلمة مهزوم مناسبة. ويمكن

للمرء أن يرى الأمر على النحو التالي: إن كلا فريقى اللعبة رابحان، بغض النظر عن نقاط الربح الضائعة أو المكتسبة. وحتى في حالة تسليم رأس مال اللعبة بكامله، ولنفكر مثلاً بمناقشة لم نتمكن فيها من نقل رأينا إلى رؤوس الآخرين، بل ابتعدنا عن أفكارنا الخاصة التافهة، فإننا نستطيع أن نتحدث عن الربح، حيث تمكنا من الخلاص من مواقف غير مفيدة وضالة وغير مناسبة ولا سبيل للاستفادة منها، وذلك من خلال إحراز تقدم معرفي. وضمن هذه النظرة، لا يوجد في علاقة الخصم سوى رابحين، ولا يوجد خاسرين، حتى إن تخلى المرء عن موقفه.

الخصم

أما في حالة علاقة العدو في المقابل، فسوف يكتب البقاء لأحدهما ويقضى على الآخر. وإذا لم يتم القضاء عليه كاملاً، فسوف تتم تصفية أجزاء من حياته بالتأكيد.

العدو

هدف هذا الكتاب

إن هدف هذا الكتاب، أن يقدم مساهمة في القضاء على المخاوف بين البشر، وتقليص خسائر المشادات، وهدم الشكوك وبناء الثقة. وفي الميدان الشخصي، ينبغي أن نقود الحياة نحو حياة إنسانية. وفي ميدان المهنة، ينبغي زيادة عائدات الاستثمار أي الوصول إلى فائدة أفضل لرأس المال المستثمر.

تقليل المخاوف

بناء الثقة

زيادة عائدات

الاستثمار

هذا وقد عرض في الفصل الدائر حول ذكاء العدوان الفارق بين تقنيات الإقناع وطرق الحل العقلاني للمشكلات، وبين معارك تبادل الأفكار والتعامل مع بعضنا البعض بلا سيطرة وبلا تحكم. إننا نود أن نقدم وجهات نظر ومعايير وقواعد ينبغي لها أن تجعل من الممكن إزالة ردود الفعل المدمرة واستبدالها بردود فعل مسؤولة وعقلانية في مواقف التوتر التي قد تؤدي إلى عدوان هدام.

تحويل التخريب

إلى تشييد